مولد جيل النصر والتمكين

نظرات تأملية في قصة سيدنا موسى عليه السَّلام

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 1 2/8/12 9:38:01 AM

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 2 2/8/12 9:38:01 AM

د. محمـد بهجت الحديثي

مولد جيل النصر والتمكين

نظرات تأملية في قصة سيدنا موسى عليه السَّلام

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 3 2/8/12 9:38:01 AM

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 4 2/8/12 9:38:01 AM

مقدمة

قال تعالى ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ () إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ () نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[١]. إن دراسة التاريخ مهمة جدا في حياة البشر بصفة عامة، وهي أكثر أهمية في حياة المسلمين بصفة خاصة، لأن هذا أمر إلهي مباشر جاء في كتاب الله تعالى ﴿ فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢].

من أجل ذلك كانت دراسة قصص الأنبياء دراسة وافية، والاطلاع عليها بصورة تفصيلية خطوة من أهم الخطوات التي تساعد على فهم جوهر الإسلام، ورفع الهمة والعزيمة، والاستفادة من تجارب الأنبياء عليهم السلام من خلال التدبر في قصصهم التي ذكرها الله تعالى لنا في القرآن الكريم لكي نتعلم منها، ولكي ننفذ أمر الله تعالى الذي أمرنا بأن نقتدي بهم وبأن نهتدي بهداهم ﴿ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[٣]. ومن أعظم القصص التي وردت في القرآن الكريم قصة نبي الله موسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل، وقد ذكرت هذه القصة في أكثر من ٧٣ موضعاً في القرآن الكريم.

وهذه دعوة للاطلاع على عبر من هذه القصة العظيمة والتي من خلالها سوف نعرف –بإذن الله تعالى– أن الأمل في قيام أمة الإسلام من جديد كبير جدا، وكل ما علينا فعله هو الرجوع إلى المنهج الرباني القويم والتمسك به وتطبيقه.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 5 2/8/12 9:38:01 AM

وقبل ذلك أود أن أبين الهدف من وراء هذا الكتيب حتى تتم الفائدة بإذن الله تعالى.. نحن نعلم ان الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم أولا، وهذه سنة إلهية وحقيقة أثبتها التاريخ، حيث أن التغيير يجب أن يبدأ من الداخل. وإذا ما قدرنا حجم المصائب والمشاكل التي تواجه بعض مجتمعاتنا اليوم - خصوصا تلك التي كانت محكومة بنظام دكتاتوري مستبد- وآمنا بمبدأ التغيير وأردنا أن نجد حلولا فعالة وجذرية لهذه التحديات وكنا جادين في ذلك، فعلينا أولاً أن نحاول جاهدين تشخيص العلة والوصول إلى الأسباب الحقيقية التي أدت إلى مثل هكذا أعراض مرضية أصابت هذه المجتمعات من أجل إيجاد علاج نافع وحلول تقضي على المشكلة من جذورها.

فالفلاح الناجح -على سبيل المثال- هو الذي يعالج مشكلة الحشائش الضارة التي قد تنبت في حديقته أو مزرعته من جذورها، فهو ينظر في علاجه إلى الجذر وليس إلا الجزء الظاهر فوق سطح الأرض. أما الفلاح الفاشل فهو الذي يقوم بقطع الجزء الظاهر من هذه الحشائش الضارة من السطح، ثم تنبت مرة أخرى بعد فترة وجيزة ليعاود قطعها مرة ثانية ويفاجأ مستغرباً ومستنكراً خروجها مرة ثالثة ورابعة وهكذا.

وفي عالم الطب، لا يمكن للطبيب أن يصل إلى العلاج الفعال إلا بعد تشخيص صحيح مبني على تحليل دقيق للمشكلة التي يعاني منها الإنسان المريض. والعكس من ذلك صحيح، ففي حال لم يتم الوصول إلى التشخيص الدقيق فان العلاج يكون ضاراً وقد يؤدي

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 6 2/8/12 9:38:01 AM

إلى مضاعفات خطيرة أخطر من المرض نفسه. وفي بعض الحالات يكون عدم إعطاء علاج، أفضل بكثير من إعطاء علاج خاطئ.

وعليه فقد انصب هذا الجهد المتواضع على فتح الباب أمام طريقة تفكير جديدة يقوم الشخص من خلالها بالنظر إلى جذور المشكلة لا إلى الأعراض التي تطفو على السطح وذلك من أجل إيجاد حلول فعالة ومثمرة.

ونظرا لاختلاف الناس بصورة عامة، فقد يتبادر هنا إلى الذهن سؤال مهم: ما هو المقياس والمعيار الذي على أساسه يتم الفصل والحكم عند الاختلاف في وجهات النظر؟ الجواب وبلا شك: «القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة» هي الفصل الحكم بين جميع من آمن بالله تعالى وحده لا شريك له. قال تعالى ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّـهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا** ﴾[٤]، وقال عليه الصلاة والسلام (إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه)[٥]. إذن على كل مسلم جاد يريد أن يعرف الحق ويصل إليه، أن يخلص النية لله تعالى أولا وأن يعرض ما يؤمن به من أفكار ووجهات نظر على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لمعرفة الصواب من الخطأ، والحق من الباطل.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 7 2/8/12 9:38:01 AM

بداية القصة (فرعون القائد)..

لقد كان فرعون قائدا لشعبه، ورفع شعارات خداعة -في ظاهرها الخير وفي باطنها العذاب- توهم الشعب أن فيها مصلحته فقال ﴿ **وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾[٦]. وكان يدير الأمور بديكتاتورية بالغة، وقد قال كلمته التاريخية التي اقتدى بها كل الطغاة من بعده ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى** ﴾[٧]، هذه الكلمة التي أصبح الطغاة يرددونها دائما حين يواجهون شعوبهم «ما أريكم إلا ما أرى» فهذا رأيي الخاص وهو رأي يهديكم سبيل الرشاد، وكل رأي غيره خاطئ، وينبغي الوقوف ضده واستئصال كل من يؤمن أو يعتقد به. وقال ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** ﴾[٨]، وكذلك كان شأن الحكام والقادة والرؤساء والمسئولين الطغاة. فهو الرئيس الآمر الناهي، وكل ما يفعله جميل وكل ما يقوله مقدس وكل ما يصدر عنه صواب وكل تاريخه أمجاد وكل رجاله ملائكة. وقد كان فرعون يغري أتباعه بمصالح دنيوية فيقول ﴿ **وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾[٩]، وكذلك يفعل الطغاة، لكننا لا نستطع أن ننكر أنه كان قائدا لقومه!. صحيح أنه ساق شعبه إلى الهاوية في الدنيا، وكذلك في الآخرة يقود أتباعه ومن كان يحبه ويطيعه طاعة عمياء إلى المصير المحتوم ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ** ﴾[١٠]، ولكن الشعوب تبعته وسارت وراءه، بعضهم طوعا والبعض كرها ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾[١١]، استخف بعقولهم، واستخف بحريتهم، واستخف بمستقبلهم، واستخف

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 8 2/8/12 9:38:02 AM

بآدميتهم، فأطاعوه. أليست هذه طاعة غريبة؟! إذن بالإمكان أن يكون الإنسان قائداً ولو كان منحرفاً، ولكن ليست هي الصورة المنشودة في القائد المسلم المؤمن الذي يقود جيل النصر حتى يمكنه الله تعالى في أرضه.

وعلى الرغم من أن فرعون كانت لديه إنجازات دنيوية كبيرة -فلقد بنى الاهرامات التي اعتبرت ولا تزال من عجائب الدنيا السبع- وعلى الرغم من أن بلاده كانت مستقرة من الناحية الأمنية، إلا أن هذا كله في ميزان شرع الله تعالى لم يساو شيئا، لماذا؟ لسببين رئيسين:

الأول: لأن الظلم والقهر والاستبداد والتجبر والدكتاتورية تعتبر من أسوأ الظواهر التي يمكن أن تمر على البشر، وسنعرف من خلال القصة كيف يمكن لذلك أن يكون.

الثاني: فتنة الدين، خصوصا إذا رافق الظلم والدكتاتورية فكر منحرف عن منهج الله تعالى.

نظرة تأملية في علم النفس (الظاهرة الفرعونية.. النموذج المثالي للدكتاتورية والاستبداد): يوجد في علم النفس ما يسمى النموذج المثالي أو الأصلي (Prototype) وهو نموذج تتوافر فيه كل الأركان أو أغلبها على الأقل بحيث يصبح أصلح النماذج للقياس عليه وضرب المثل به، فهو يمثل ظاهرة معينة في أوضح وأتم صورها ومعانيها. وإذا جئنا إلى موضوع الاستبداد والدكتاتورية نجد أن النموذج المثالي له يتمثل في قصة فرعون التي وردت في الكتب السماوية ووردت بقوة

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 9 2/8/12 9:38:02 AM

في القرآن الكريم وتكررت ٧٤ مرة في ٢٨ سورة من سور القرآن. وهذا الحضور القوى المتكرر لقصة فرعون يشير إلى أن ما تمثله هذه القصة من استبداد يعتبر مرضاً عضالاً تحتاج البشرية لمواجهته، وهذا ما أيده التاريخ في كل مراحله فلم يحدث أن عانى البشر شيئاً مثل معاناتهم القهر والدكتاتورية والتسلط بصوره ومستوياته المختلفة.

ولقد وضح لنا القرآن الكريم الأركان الأساسية والأدوات المهمة التي تعتمد عليها «الظاهرة الفرعونية» أو «النموذج الفرعوني» للوصول إلى الاستبداد، ويمكن تلخيصها في ما يلي:

أولا.. أركان الاستبداد: هناك أطراف (أركان) ثلاثة تتحالف مع بعضها بعضاً وتتآمر لخلق منظومة الاستبداد، وهي:

١. الحاكم المتأله الدكتاتور المتجبر في بلاد الله، المتسلط على عباد الله، ويمثله فرعون.

٢. السياسي الوصولي، الذي يسخر ذكاءه وخبرته في خدمة الطاغية، وتثبيت حكمه، وترويض شعبه للخضوع له ويمثله هامان.

٣. الرأسمالي المستفيد من حكم الدكتاتور، فهو يؤيده ببذل بعض ماله، ليكسب أموالاً أكثر من عرق الشعب ودمه، ويمثله قارون.

ولقد ذكر القرآن هذا الثالوث المتحالف على استغلال شعبه والتسلط عليهم، ووقوفهم في وجه رسالة الإصلاح التي حملها موسى عليه السلام، حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ﴿**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ**﴾[١٢]. والعجيب أن قارون كان من قوم موسى،

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 10 2/8/12 9:38:02 AM

ولم يكن من قوم فرعون، ولكنه بغى على قومه، وانضم إلى عدوهم فرعون، وقبله فرعون معه، دلالة على أن المصالح المادية هي التي جمعت بينهما، برغم اختلاف عرقيهما ونسبيهما.

ثانيا.. أدوات الاستبداد: لابد للاستبداد والدكتاتورية من أدوات للترهيب والترغيب حتى تخضع له الرقاب ويسلم له العباد إرادتهم وخياراتهم. والدكتاتور يعرف جيداً مواطن ضعف البشر ويحاول استغلالها بأبشع الطرق وأكثرها دهاءا في نفس الوقت، ومن أهم هذه الأدوات:

١. السلطة (فرعون): فالحاكم الدكتاتور يستغل جنوده (كالشرطة والجيش والأمن والمخابرات) لإرهاب رعيته ويستغل النظام السياسي الموالى له لإضفاء الشرعية على أفعاله وتجريد خصومه من تلك الشرعية ووصفهم بالتآمر والخيانة. وأثر الظاهرة الفرعونية يمتد ليشمل أي نوع من أنواع الدكتاتورية والاستبداد حتى وإن كان على المستوى النفسي والمعنوي وفي مختلف الأماكن، فالأب الدكتاتور الذي يستغل نفوذه المالي وقوته الجسدية ومكانته المعنوية في قهر أبنائه وسلب حرياتهم -كحرية التعبير واتخاذ القرار- ومعاملتهم كالعبيد وكذلك تفعل الأم المستبدة، والزوج الدكتاتور يستغل حق القوامة (كما يفهمه) ويستغل تفوقه العضلي وربما المالي في إذلال زوجته والتسلط عليها، والمسؤول المستبد يستغل ما يملك من صلاحيات للتحكم في رقاب مرؤوسيه في العمل، وهكذا.

٢. المناصب (هامان): ينتقي الدكتاتور من بين الناس أولئك

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 11 2/8/12 9:38:02 AM

المتعطشين للمناصب والراغبين في العلو بأي ثمن فيستخدمهم ويستعملهم كأدوات لحمايته وتبرير أفعاله وتمجيده وتحلية صورته أمام العامة.

٣. المال (قارون): ومن لا يصلح معه الترهيب بالسلطة يصلح معه الترغيب بالمال، ولهذا يحرص المستبد على إمساك الثروة في يده لتكون وسيلة ضغط على من تحت يده ووسيلة ترغيب وشراء ذمم.

٤. الإعلام (سحرة فرعون): فالدكتاتور يحتاج لمن يدارى سوءاته ويزين عوراته ويسوق مشروعاته وأفكاره بين الناس ويبرر أخطاءه وهزائمه ويحولها إلى انتصارات ويمارس التزييف للوعي والتخدير للعقول والمشاعر طول الوقت. ومن هنا يمكن أن نعتبر الإعلاميين الموالين لأي مستبد بمثابة سحرة فرعون الذين كانت مهمتهم أن يسحروا أعين الناس بمعنى تزييف الحقائق.

٥. القتل والتعذيب: وهذه من علامات الضعف وليس القوة مطلقا، فالدكتاتور غالبا ما يجد أن أسهل طريقة للتخلص من خصومه أو منافسيه هي في قتلهم أو تعذيبهم أو سجنهم بغير حق. فتجد المستبد الطاغية يسارع إلى قتل كل من يشك –مجرد الشك– بأنه قد يفكر –مجرد التفكير– بمنافسته على كرسي الحكم. وهذا ما فعله فرعون عندما أصدر قراره الشهير بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل –حيث سمعهم يتحدثون عن نبوءة تقول إن واحدا من أبناء إسرائيل سيسقط فرعون عن عرشه– فأصدر أمره ألا يلد أحد من بني إسرائيل، أي أن يقتل أي وليد ذكر!. قال تعالى ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾[١٣].

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 12 2/8/12 9:38:02 AM

٦. استعباد الناس: لقد أنكر القرآن الكريم أمر استعباد الناس إنكارا شديدا، وجعله صفة من الصفات الفرعونية المنكرة التي إن توفرت في شخص ما استحق العقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة. ولكن، نجد -وللأسف الشديد- البعض من يقول متسائلا ومدافعا عن الفرعون «نعم انه ديكتاتور.. ولكن، ألم يوفر لشعبه المدارس والمستشفيات؟! ألم يقم بدعم الزراعة والفلاحين في البلاد؟! ألم يقم بدعم التعليم وشنَّ الحملات لمحو الأمية؟! ألم يقم بتربيتنا؟! من نحن لولا هذا الفرعون؟!» وينسى أو يتناسى أن توفير هذه الأمور -وهي حق من حقوق الشعب ولا يمكن اعتبارها فضلا ومنة- لا يَغفِر أبدا أمر استعباد الناس وتسخيرهم لخدمة أهوائه الشخصية وتمجيد وتخليد أسمه. هذا بالإضافة إلى سلب حرياتهم الفكرية والعقدية والشخصية وغيرها من أبسط حقوق الناس الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

وهذا ما فعله فرعون عندما قال لموسى عليه السلام ﴿**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ**﴾[١٤]، فكان الجواب القرآني الحاسم على لسان سيدنا موسى عندما قال ﴿**وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾[١٥]. وبهذا الجواب فإن موسى عليه السلام وضع حدا لهذا النوع من اللبس الذي قد يقع على البعض، وكأنه يقول له: أتمن علي بهذه الأشياء وتذكر هذه الحسنة وهي لا تساوي شيئا لو قارنتها بما حدث منك من استعباد بني إسرائيل وسلب حرياتهم!.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□□.indd 13 2/8/12 9:38:03 AM

مولد جيل النصر والتمكين..

قال تعالى ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ () إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ () وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ () وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١٦].

ومباشرة بعد هذه الآيات التي صورت جذور المشكلة والوعد الرباني بالنصر والتمكين، جاء الحل الجذري في الآية التي تلت ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[١٧]. وكأن هذه الآية هي بداية تحقيق الوعد الرباني، ولكن كيف؟ فالآيات بعد أن أشارت إلى علو فرعون وتجبره وإلى حتمية التغيير، انتقلت إلى جو مختلف تماما: أم ترضع ابنها، فما العلاقة؟! إن في ذلك إشارة بأن النصر يبدأ بأمهات تربي أطفالها، وترضعهم (مع الحليب) التمسك بهذا الدين، والثقة بوعد الله تعالى عز وجل.

إنها قصة مولد جيل جديد، بدأت بأم واثقة من وعد الله تعالى لها، آباء وأمهات يربون أولادهم على طاعة الله والالتزام بمنهج الله والثقة بنصره جل وعلا.

وهنا نرى بشكل واضح أن الحل كان في تربية جيل يحمل هم الإسلام وهم الدعوة إلى الله، جيل ناجح متخذ بجميع أسباب النصر والتمكين، جيل واثق من نصر الله تعالى. كما أن هذه الآية

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 14 2/8/12 9:38:03 AM

تسلط الضوء وبشكل واضح على دور المرأة ودور الأسرة في نصرة هذا الدين وكل ما من شأنه أن يكون سببا في النهضة والتمكين.

المرحلة الأولى.. نهاية فرعون

بعد أن أرسل الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون يطلبان منه الحرية لبني إسرائيل، استنكر فرعون ذلك ورفض بشدة واستمر في طغيانه وتجبره. فسلط الله تعالى على فرعون وقومه أنواعاً من الابتلاءات لعلهم يتذكرون.

فابتلاهم جل وعلا ﴿ **بِالسِّنِينَ** ﴾ فعم القحط والجدب وأنقص الله تعالى المطر على بساتينهم. وكذلك ابتلاهم بنقص شديد في الثمار فجفت زروعهم وهلكت مواشيهم وأصبحت أحوالهم الاقتصادية والمادية والمعيشية في ضنك شديد، حتى كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة. قال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ..** ﴾ كل هذه الابتلاءات –وغيرها من التي حلت بفرعون وقومه– لماذا؟ ﴿ **..لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾[١٨] فيتعظون وترق قلوبهم لذكر الله تعالى والعودة إلى شريعته التي انزلها على نبيهم والالتزام بها وتطبيقها. لكن فرعون والغالبية من قومه ازدادوا تمردا وبعدا عن دين الله تعالى.

واستمر هذا الحال ثلاثون عاما، وكان فرعون وقومه يرون بأعينهم جميع أنواع الآيات الربانية والابتلاءات. لكن فرعون ظل على تجبره، يوسع بني إسرائيل ظلما وعبودية ﴿ **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى** ﴾[١٩].

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 15 2/8/12 9:38:03 AM

وبعد كل هذه الثلاثين من السنين، أدرك نبي الله (موسى عليه السلام) أنه لم يبق هناك أي أمل لأن يعطي فرعون الحرية لبني إسرائيل ويقوم بعملية إصلاح شامل مبني على الإلتزام بمنهج الله تعالى. فدعا موسى عليه السلام ربه، كما جاء في قوله جل وعلا ﴿ **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ وكان الجواب الرباني الحاسم ﴿ **قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ () وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ () آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ () فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾[٢٠].

لقد هلك فرعون –وهذه هي النهاية الحتمية لكل طاغية دكتاتور– مات ولم تُقبل توبته على الرغم من أنه نطق بكلمة التوحيد وشهد أن لا إله إلا الله وأنه من المسلمين ﴿ **قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾. لماذا؟ لأنه ما نطق بها إلا عندما رأى الهلاك وعلم ذلك وعاينه، ويقول العلماء إن الإيمان إنما ينفع إذا لم يُعاين العبد ولم يُغرغر، لأنه إذا عاين صار من باب الإيمان بعالم الشهادة، وليس من الإيمان بعالم الغيب.

مات أمام عيون شعبه، بل وحفظ الله تعالى صورة اللحظات الأخيرة لموته في قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وأنجى الله تعالى بدنه

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 16 2/8/12 9:38:03 AM

ليراه كل الناس، لماذا؟ لأن فرعون كان يريد الخلود في الدنيا –وهذا ما حدث له حيث لا يزال ذكره باقيا ولا تزال جثته محفوظة إلى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة– وليكون عبرة لكل الطغاة من بعده.

وبعد أن هلك فرعون –وكانت معجزة شق البحر لم تزل طرية في أذهانهم– ظل البعض من قومه يشكون في موته، ولا يصدقون أنه مات. وظن البعض أنه قد يرجع مرة أخرى! حتى قال بعضهم إن فرعون لا يموت. فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه. ليتحققوا بذلك من هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾.

ورغم موته، ظل أثره باقيا في نفوس شعبه، فمن الصعب على سنوات الدكتاتورية والقهر الطويلة والذل المكثف أن تمر على نفوس الناس مر الكرام. لقد عوّد فرعون شعبه الذل لغير الله، هزم أرواحهم وأفسد فطرتهم فعذبوا موسى عذابا شديدا بالعناد والجهل.

والمتأمل في هذه القصة يرى أن القرآن الكريم لم يكتف بفضح الفرعونية والإنكار الشديد عليها وإنّما حمّل المسؤولية كذلك للجماهير الرّاضخة المستسلمة للاستبداد، قال تعالى عن فرعون ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾[٢١]. فالظاهرة الفرعونيّة تتشكل من الطاغيّة الدكتاتور من جهة والشعب المتّصف بالسلبية من جهة ثانية.

وقد يبدو للنظر القصير أن مجموعة المحيطين بالدكتاتور ضحايا

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 17 2/8/12 9:38:03 AM

له إذ يعانون استبداده ويتحملونه على مضض وهذا صحيح من جانب واحد، أما الجانب الآخر فهو أنهم شاركوا في صنع هذا المستبد، بعضهم شارك بالأقوال والأفعال التي ضخمت ذاته (كالطاعة العمياء والمدح والثناء والتصفيق والتبرير لكل صفات المستبد وأفعاله والمشاركة في تنفيذ مشروعاته) وبعضهم الآخر شارك بالصمت والسلبية مما سمح لصوت الدكتاتور أن يعلو عمن سواه وسمح لذاته أن تتمدد في الفراغ الذي انسحب منه الآخرون كرهاً أو طوعاً.

المرحلة الثانية.. مرحلة الابتلاء والامتحان والتمحيص

انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى (عليه السلام)، وهي تخليص بني إسرائيل –بإذن الله– من حياة الذل والعبودية على يد فرعون وجنده والسير بهم إلى الديار المقدسة. لكن القوم لم يكونوا على استعداد للمهمة الكبرى، مهمة الخلافة في الأرض. فكان لا بد من رسالة مفصلة ومنهج رباني لتربية هذه الأمة وإعدادها لما هم مقبلون عليه. من أجل هذه الرسالة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾[٢٢]. فتلقى موسى عليه السلام بشرى الاصطفاء، مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص، ثم يبين الله تعالى مضمون الرسالة ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾[٢٣]. ففيها كل شيء يختص

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 18 2/8/12 9:38:03 AM

بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته والتوجيهات المطلوبة لاصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها الذل وطول الأمد، وهنا يأتي الامتحان، لماذا؟ لأن مهمة الاصلاح التي تعتمد على شرع الله تعالى، أمانة ثقيلة وكبيرة وتحتاج إلى تطبيق حقيقي وليس شعارات وكلام فقط.

أما بالنسبة لنا نحن كمسلمين فلدينا هذا الدين العظيم والشريعة الصالحة لكل زمان ومكان، قال تعالى ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [٢٤]. والإسلام -كما هو معروف- مبني على فكرة بسيطة جدا لمن تأملها بعمق، الفكرة هي أن الله تعالى خلق الكون، وخلق ادم وأحسن خلقه ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾[٢٥]، ليكون خليفة في الأرض ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٢٦]، فكان لابد من دستور وقانون وشريعة لهذا المخلوق لإدارة هذه الأرض، فكان الإسلام دين الله في أرضه. فان أطعت الله وكنت صالحا مصلحا متبعا لما أنزل تعالى من الحق، صلح حال العباد والبلاد وحققت النجاح في الدنيا ودخلت الجنة في الآخرة. إذ اننا -كمسلمين- لا نعتبر أن الناجح في الدنيا الخاسر في الآخرة قد حقق معنى النجاح الحقيقي. إنما نرى الموفق في الدنيا الرابح في الآخرة هو الشخص الناجح لأنه لم يكتف بمكاسب الدنيا، بل أراد فلاح الدارين.

سار موسى بقومه في اتجاه الأرض المقدسة وكانت محتلة من قبل قوم وصفهم الله تعالى بالجبارين، أي أصحاب قوة كبيرة في

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 19 2/8/12 9:38:04 AM

ذلك الزمان. أمر موسى قومه بدخولها لتحريرها والقيام بمهمة الاصلاح فيها وتعبيدها لله تعالى، كما جاء في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ **يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾[٢٧]. وها قد جاء امتحانهم، بعد كل ما وقع لهم من المعجزات والآيات والخوارق، جاء دورهم ليقوموا بمهمة الاصلاح. ولكن، رفض قوم موسى دخول الأراضي المقدسة. وحدثهم موسى عن نعمة الله عليهم ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ** ﴾[٢٨]. وكان رد قومه عليه كما جاء في قوله تعالى ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ** ﴾[٢٩]. ولعلنا هنا نشير مرة أخرى إلى نفسية قوم موسى الذين تربوا ونشأوا وسط هوان وذل ودكتاتورية وتسلط، أهدرت فيهما إنسانيتهم والتوت فطرتهم.

وانضم لموسى وهارون اثنان من القوم. تقول بعض الكتب أنهم خرجوا في عدد كبير، لم يجد موسى من بينهم غير رجلين على استعداد لمهمة الاصلاح، وراح هذان الرجلان يحاولان إقناع القوم بدخول الأرض من أجل الاصلاح اعتمادا على منهج الله تعالى ﴿ **قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[٣٠]. ولكن بني إسرائيل جميعا كانوا يتدثرون بالسلبية ﴿ **قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا** ﴾[٣١].

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 20 2/8/12 9:38:04 AM

فسدت فطرتهم، وانهزموا من الداخل، واعتادوا السلبية، فلم يعد في استطاعتهم أن يكونوا إيجابيين، وما عاد بالإمكان أن تسيرهم إلا القوة. وإن بقي في استطاعتهم أن يتواقحوا على نبي الله، وقال قوم موسى له كلمتهم الشهيرة ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[٣٢] هكذا بصراحة وبلا التواء.

أدرك موسى أن هذا الجيل من قومه ما عادوا يصلحون لحمل المنهج الرباني وتطبيقه. مات فرعون ولكن آثاره في النفوس باقية يحتاج شفاؤها مدة طويلة.

وهذا هو حال الشعوب التي عاشت في ظل القهر والدكتاتوريات لفترات من الزمن، فلم يعد ممكنا بعد زرع الذل في نفوسهم واعتيادهم على السلبية تجاه أمر التغيير والاصلاح، لم يعد ممكنا أن يساقوا إلى الخير بسهولة. لقد اعتادوا أن تسيرهم القوة القاهرة للفرعون، ولا بد لسيدهم الجديد -وهو الإيمان الدافع للإيجابية والاصلاح- من أن يقاسي الأهوال لتسييرهم.

والمتأمل في هذه القصة يرى أن من قواعد الحكم عند «الظاهرة الفرعونية» هي إلغاء عقول الناس واختيارهم الحرّ والتحكم حتى في أفكارهم، وهذا من أسوأ ما يمكن أن يمر على شعب أو مجتمع وله أثار سلبية وفواجع هائلة. فإذا قال الاشتراكية هي وحدها الحلّ يجب أن يعتقد الجميع أن أي حال آخر مؤامرة وخيانة ورجعية، وإذا رأى أن النظام الليبرالي هو طوق النجاة فلا يجوز لأحد أن يرى غير ذلك ولو كانت معه ألف حجة علمية، بل لا يحقّ لأحد أن يختار

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 21 2/8/12 9:38:04 AM

عقيدة أو فكر إلا الذي يؤمن به الطاغية، وعلى الشعب أن يكون على عقيدة هذا الدكتاتور أو فكره وإن لم يَنتَم!.

ألم ينكر فرعون على سحرته عندما آمنوا بموسى عليه السلام بقوله ﴿ **آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** ﴾[٣٣]، حتى الإيمان الذي محله القلب يخضع لإذن فرعوني مسبق! وكم عشنا هذا في عالمنا العربي ومازلنا نعيشه، رغم أن الله تعالى لم يفرض دينه الحقّ على أحد بل قال ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [٣٤]، وقال لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** ﴾[٣٥].

وفي جوّ الدكتاتورية والإرهاب الفكري تموت المواهب وينعدم الإبداع، وتمرض النفوس وينتشر الفساد وينعكس ذلك على الأخلاق والسلوك والقيم. ويصبح النفاق وهيمنة محبي الجاه والنفوذ هي السمة الغالبة للمجتمع، ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين، ويسود التعصب القبلي والعشائري. وإذا ما أضفنا إلى ذلك الحروب التي لا تحكمها رؤية ولا هدف وما تستنزفه من طاقات بشرية واقتصادية هائلة، فإن النتيجة الحتمية تكون في انتشار الجوع والخوف والرشوة والفساد، وانتشار الحسد والحقد سوء الظن والغيبة والنميمة بين الناس. فتتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية، وينشغل الناس بأشيائهم المادية وحاجاتهم اليومية، وتسيطر هذه الأمور على التفكير حتى لا تترك متسعا للقضايا الكبرى، ولا تدع مجالا للإحساس بالتحديات الداخلية والخارجية. ويعودون كالجاهلية همة أهدهم لا تتعدى بطنه. وهنا يلفظ المجتمع أنفاسه

□□□ □□□□□ □□□□□□□□□.indd 22 2/8/12 9:38:04 AM

ويمرض مرضا شديدا، وتنبعث منه روائح المرض المميت. فتتقدم إحدى الجماعات البشرية الأخرى لتستغل الفرصة وتنقض على فريستها بكل يسر وسهولة، كما تنقض صغار الوحوش على جثة الثور الكبير لتنهش لحمه وتقطع أوصاله بعد أن كانت في حياته -عندما كان صحيحا- ترتعب من منظره.

إنها ليست مسألة متعلقة بفترة تاريخية معينة ولا بحيّز من الأرض ولا بقوم دون آخرين، إنما هي مجموعة من الخصائص تتجمع بالتراكم في مجتمع أو شعب أو شعوب تنهار نفسيّا فتفقد الثقة بذاتها وتصبح السلبية -تجاه أمر الاصلاح- سمتها ولا تقوى على تفعيل طاقاتها البشرية والمادية فتخلد إلى إسلام أمرها إلى كل متسلّط يفعل بها ما يشاء، بل قد يصل بها الحال إلى أنها لا ترضى بغير القوة لتحكمهم وتسير أمورهم.

وهذا ما نراه اليوم، فترى لسان حال البعض يقول «نحن لا ينفع معنا -لكي يستقيم أمرنا- إلا حاكم دكتاتور.. نحن لا تنفع معنا إلا القوة»، والبعض تجده يقول صراحة «نحن لا ينفع معنا إلا فرعون ليحكمنا»!. وهذه وللأسف الشديد من أهم معوقات التغيير التي قد تواجه الأفراد والمجتمعات، إذ أن الحكم الدكتاتوري الطويل الأمد يؤدي إلى الإدمان على السلبية. فإذا ما أذهب الله تعالى بقدرته الفرعون الحاكم، فإن المجتمع -ابتداء بالفرد- يكون أمام عدة خيارات، أهمها:

• الإيجابية تجاه أمر الاصلاح.. ابتداء بالنفس والقاعدة الربانية تقول ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٣٦]. وهذا

□□□ □□□□□ □□□□□□□□□.indd 23 2/8/12 9:38:05 AM

يحتاج إلى جهد كبير قد لا تطيقه النفوس التي أدمنت السلبية، إذ أن أمر التغيير واكتساب عادات جديدة وترك المألوف صعب جدا على النفوس. فالنفس بطبعها تنفر من التقييد والالتزام، خاصة إذا لم يكن وراء ذلك منفعة قريبة، أو فائدة مادية محسوسة. لذلك على الإنسان الذي أراد طريق الاصلاح أن يقوم بترويض نفسه، وإخضاعها، وضبطها، وتدريبها بالتدريج، حتى تألف الالتزام وتميل إلى كل ما من شأنه أن يكون سببا في تزكية نفسه وفي نهضة أمته شيئا فشيئا.

• الركون إلى السلبية.. وذلك عن طريق الاسقاطات. وفي هذه المرحلة -مرحلة الاسقاطات- فإن الشخص -أو المجتمع- لا يرى أنه السبب في مشاكله ووضعه الحالي، فهو يسقط كل معاناته على الظروف والأسباب الخارجية، وعلى الحاكم الدكتاتور الذي ذهب وتركه فريسة لكل من هب ودب، أو على الحاكم القوي المخلَص الذي لم يأت بعد!؟ وفي هذه المرحلة فإن الإنسان لا أمل له من تغيير وضعه، أو التغلب على مشكلتـه! لماذا؟ ذلك لأن الشخص في هذه الحالة لا يرى أنه بالإمكان أن يكون هو جزء من الحل، وبالتالي فهو غير مطالب بتغيير نفسه والمشاركة في إيجاد الحلول. فتزداد هموم هذا الشخص ويستسلم لليأس والإحباط وكثرة الشكوى -وكأنه يدور في دائرة مغلقة- وتجد لسان حاله يقول: لا فائدة.. هذا الزمن تعيس.. ومن المستحيل أن يحدث أي تغيير.. أي نهضة هذه التي تتحدث عنها.. لنكن واقعيين..! لسان حالهم يقول قوله تعالى ﴿ ..**إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾[٣٧].

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 24 2/8/12 9:38:05 AM

المرحلة الثالثة.. الحكم بالتيه والاستبدال

عاد موسى إلى ربه يحدثه أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [٣٨]. وبهذه النفسية أصدر الله تعالى حكمه على هذا الجيل الذي استسلم لليأس والسلبية والقعود تجاه أمر الاصلاح المبني على الالتزام بشرع الله تعالى. كان الحكم هو التيه أربعين عاما ﴿ **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾[٣٩].

حكم الله عليهم بالتيه، وكان الحكم يحدد أربعين عاما كاملة، وهنا نسأل: لماذا حدد الله الرقم اربعين؟ حتى يموت هذا الجيل أو يصل إلى الشيخوخة، ويولد بدلا منه جيل آخر، جيل إيجابي لم يهزمه أحد من الداخل، ويستطيع ساعتها أن يلتزم بشرع الله تعالى وأن يصلح وأن ينتصر. نحن نخشى أن يكون فينا مثل هذا الجيل المذكور في القرآن!.

نظرة تأملية في القانون الإلهي للتغيير.. إن المتأمل في كتاب الله جل وعلا يستطيع أن يرى أن هناك قانونين رئيسين للتغير وردا في القرآن الكريم:

قال تعالى ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[٤٠]، هنا الكلام عن نوع من الناس أوضاعهم جيدة وفي نعمة، ثم أزيلت هذه النعمة. وكما نعلم فإن

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 25 2/8/12 9:38:05 AM

الله تعالى لا يزيل النعم عن البشر إلا إذا هم فعلوا شيئا أدى إلى زوال هذه النعم.

وقال تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾[٤١]. هنا العكس تماماً، أناس أوضاعهم غير جيدة.. فشل وفساد ومشاكل وتأخر.. لن تتحسن أوضاعهم -هذه قاعدة- لن تتحسن إلا بأن يعملوا شيئا ويغيروا، ولكن بشرط أن يبدأ التغيير من القاعدة.

علماً أن السنة الاجتماعية في التغيير هي سنة مجتمع لا سنة أفراد، فهي ليست تحول يحدث لفرد أو اثنين أو عشرة أو عشرين. إنه لا بد من تشكل نسبة اجتماعية معينة تصل إلى الدرجة الحرجة -وهي الدرجة التي تعقبها مباشرة حدوث التحول- أي لابد أن يغير المجتمع نفسه أولا حتى يحدث الله تعالى التغيير من أحواله الداخلية والخارجية. حيث إن الله تعالى إذا رأى أن عباده قد غيروا ما يستطيعون تغييره في أنفسهم ومجتمعاتهم، فإنه يغير لهم ما يعجزون عن تغييره، ويهيئ لهم أسباب ذلك.

وهذا ما يحدثه الحراك الشعبي الهادف المطالب بالتغيير -على سبيل المثال- ولا تحدثه الانقلابات سواء كانت من الداخل كانقلاب عسكري أو من الخارج كاحتلال دولة لدولة أخرى. ذلك لأن الانقلاب يُحدِث تغييرا في نظام معين، وقد يكون النظام الجديد أفضل من القديم، وقد يكون أسوأ وهذا هو الغالب، لماذا؟ لأن الانقلاب -في الغالب- هو طلب للسلطة، وهو تغيير يحدث لأشخاص الحكام مع بقاء القوة معيارا للحكم. ومهما يكن الأمر

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 26 2/8/12 9:38:05 AM

فإن التغيير -في هذه الحالات- لا يمس المجتمع على أي مستوى من المستويات. وبما أن الناس هم الأساس في عمليات التغيير الكبرى، فإن ما يلحق بالأمم ـ في الأعم والأغلب- من أضرار بسبب الانقلابات أكثر بكثير مما تناله من منافع.

أما الحراك الجماهيري المطالب بالحرية والاصلاح فهو بالأساس طلب للتغيير وليس للسلطة، وغالبا ما يكون له أثر كبير في التغيير من الداخل على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع. وفيه نجد أن التغيير يحصل على مستويات عديدة وفي وقت قياسي، حيث أن التخلص من اليأس والسلبية وإحياء الإيجابية -الدافعة للتغيير- في النفوس والمجتمعات يحتاج في العادة إلى زمن طويل.

مثال.. إن المجتمع المحكوم بالظاهرة الفرعونية -التي تنطبق عليها الخصائص المذكورة في القرآن الكريم- لفترة طويلة من الزمن، إذا ما غلبت عليه الصفات التالية:

- البعد عن دين الله تعالى والسلبية تجاه أمر التغيير والعودة إلى المنهج الرباني القويم وتطبيقه.
- النفاق والطاعة العمياء للفرعون واعتقاد ما يعتقد به من أفكار وإن كانت مخالفة لمنهج الله تعالى، بحيث تصبح عقيدة الفرعون الحاكم هي السمة الغالبة والمسيطرة على فكر المجتمع.
- عدم البدء بالتغيير من الداخل، وانتظار أن يأتي التغيير من الخارج.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 27 2/8/12 9:38:05 AM

• توقف الدعوة والتربية وعدم الالتزام بسنة التدرج التي ركزت على اصلاح النفوس والفكر أولا.

• الإصرار على البعد عن منهج الله وعدم التفكير في الرجوع إليه، حتى بعد رحيل الفرعون ورؤية الابتلاء ومعرفة حقيقة أنه لا ملجأ من الله تعالى إلا إليه.

فإن الله تعالى قد يبتلي هذا المجتمع بأنواع من الابتلاءات، منها:

• (ظلم خارجي وفرقة داخلية).. بأن يسلط الله عليهم من الخارج من هو أشد ظلما من الفرعون ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ..** ﴾. ويبتليهم من الداخل بالفرقة والاختلاف الهدام ﴿ **..أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ..** ﴾ فيصبح الاختلاف المقيت هو السمة الطاغية على المجتمع ويصبح الجدل السلبي المفرق للقلوب هو السمة الغالبة على مجالس الحديث والذي غالبا ما يدور حول المشاكل لا الحلول. وإذا ذكر الحل، فكل الحلول مطروحة إلا حل واحد: الدعوة إلى الله تعالى وإلى الرجوع إلى المنهج الرباني القويم من أجل نهضة شاملة مبنية على أسس صحيحة. قال تعالى ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** ﴾[٤٢].

• (فقدان القدرة على ترتيب الأولويات والتمييز بين الحق والباطل).. إن توقف الدعوة والتربية لفترات طويلة، وعدم الإعداد

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 28 2/8/12 9:38:05 AM

المسبق للأزمات ولما بعد التمكين، وعدم دراسة الواقع دراسة عميقة، يجعل البعض -وخاصة في أوقات الأزمات- يرى الحق باطلا فيجتنبه، ويرى الباطل حقا فيتبعه، فتختلط الأولويات، وتكثر الأخطاء، ويخون الأمين، ويؤتمن الخائن، وتزيد حالة التمرد والتي قد تصل إلى مستوى القيادات وحتى الإسلامية منها، ويتم النظر إلى المصالح والمفاسد من منظار ضيق آني ليس فيه بعد نظر أو تحقق من مآلات المصالح أو عواقب المنافع فتتفاقم الخسارة وتتوالى الفواجع خصوصا بين الصف الذي يحمل راية النهضة.

• (الانغماس في مرحلة الاسقاطات).. وهي مرحلة في علم التغيير تعني الاعتقاد بنظرية المؤامرة وإلقاء اللوم على الآخرين وعدم الاعتراف بالأخطاء، فتجد كل فئة ترمي اللوم على أختها وتسقط كل معاناتها وتعثرها على الظروف الخارجية والآخرين.

• (توقف الدعوة وندرة الدعاة).. بأن تقل فيهم الدعوة أو تتوقف بالكلية، ويقل فيهم الدعاة والمصلحون إلى حد الندرة، وتجد الغالبية يسارعون إلى الحلول السريعة وإلى التغيير الذي يبدأ من القمة. وإذا ما ترافق ذلك مع توقف التربية والانغماس في المادية والتوكل على الأسباب، وما يترتب على ذلك من قسوة تصيب القلوب ولين يصيب المواقف، فإن الله تعالى يكلهم إلى أسبابهم وينسيهم سنته عز وجل في النصر والتمكين التي جاءت في قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن..**﴾ و «إن» كما هو معروف أداة شرط جازمة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[٤٣].

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 29 2/8/12 9:38:06 AM

• (فتنة الدين).. وأشد أنواع البلاء وأخطرها هي فتنة الدين. فتجد هؤلاء القوم قد أشرب في قلوبهم حب الفرعون الحاكم. فترى البعض قد لا يتأثر عندما تذكر له الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكنه يتأثر تأثرا بالغا عندما يتم ذكر الفرعون الذي أصبح –وهو يحمل كل الصفات الفرعونية المذكورة في القرآن الكريم- رمزا وقدوة بل وأمرا مقدسا لا يمكن المساس به. وكذلك الأمر بالنسبة لعقيدته أو فكره دون النظر فيما إذا كان هذا الفكر مطابقا وموافقا لشرع الله تعالى وما أنزله من الحق.

ألم يحدث هذا كله مع قوم موسى عليه السلام، كما جاء في قوله تعالى ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾[٤٤].

ولننظر ماذا حدث لهم ولنتأمل ولنعتبر..! بعد أن أذهب الله تعالى بقدرته فرعون وأغرقه أمام أعينهم، أخذ الله تعالى على قوم موسى عليه السلام عهداً مؤكداً بأن يلتزموا بشرعه جل وعلا الذي أنزله على نبيهم.. فنقضوا العهد ولم يلتزموا بما أُمروا به.. فابتلاهم جل وعلا -بأن رفع فوقهم الطور- وذلك ليعلموا أنه لا ملجأ منه إلا إليه، وقال لهم جلت قدرته (خذوا ما آتيناكم بجدٍّ، واسمعوا وأطيعوا) [٤٥]، وذلك من أجل مهمة الاصلاح والخلافة في الأرض التي من أجلها خُلِقوا.. وبعد أن سمعوا كل هذا واستوعبوه

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 30 2/8/12 9:38:06 AM

وعرفوه حق المعرفة، وبعد أن رأوا الابتلاء بأعينهم، ماذا فعلوا؟! ظلوا مبتعدين عن دين الله وأصروا على عدم الإلتزام بشرعه الذي أنزله على رسولهم. فماذا كانت النتيجة؟ أشرب في قلوبهم حب (العجل) بإصرارهم هذا.

ومعنى (أشربوا): أنه جُعل هذا الحب كأنه ماء سقي به القلب. وذلك يعني أن «العجل» قد صار في قلوبهم، وسرى فيهم مسرى الدم، حتى لو لم يعد هناك تجسيم مادي للعجل بشكل مباشر على واقعهم. كأن ذلك يعني أنه سكن رؤيتهم للحياة، ولم يعد مهماً كثيراً هنا، إن كانوا يؤدون طقساً معيناً للعجل أو لا، بالضبط «أُشرب» هي الكلمة التي تعبر عن حالتهم.

والنص القرآني لم يورد قصة العجل ودخوله في قلوب بني إسرائيل -أي في جوهر رؤيتهم للحياة- من أجل السرد التاريخي فحسب. وحكاية العجل قد تتكرر في حياة الناس بخطوطها العامة دون تفاصيلها. فحب الفرعون أو الاعتقاد برؤيته أو فكره البعيد عن منهج الله تعالى والمتمثل في رمز «العجل» هو الذي قد يسيطر على بعض المجتمعات في مثل هذه الحالات، فينعكس ذلك على كل شيء، ولا يستطيعون -عندئذ- أن ينظروا للحياة إلا من خلال فكر أو عقلية أو طريقة تفكير ذلك «الفرعون»، فتصبح رؤيتهم رؤية جامدة لا تجديد فيها ولاحياة.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 31 2/8/12 9:38:06 AM

قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٤٦]. ولنتساءل؟ كيف آذى قوم موسى نبيهم عليه السلام؟! وذلك بتركهم وإعراضهم الشديد عن شريعة الله تعالى التي أنزلها على نبيهم موسى عليه السلام. فماذا حدث لهم لما «عدلوا عن الحق مع علمهم به، وأصرُّوا على ذلك»؟! «صرف الله قلوبهم عن قَبول الهداية؛ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم»[٤٧].

ونتساءل: أليس هجر القرآن الكريم والإصرار على عدم العودة إليه كحل أساسي لمشاكلنا فيه إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم؟ كما جاء في قوله تعالى على لسان رسوله الكريم ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[٤٨]، أي: «يا ربِّ إن قومي تركوا هذا القرآن وهجروه، متمادين في إعراضهم عنه وترك تدبره والعمل به وتبليغه»[٤٩]. وتجد لسان حال البعض يقول: «نحن مؤمنين بالله تعالى ونعلم أنه هو الخالق الرزاق» ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٥٠]، «قل لهم -أيها الرسول-: قَبُحَ ما يأمركم به إيمانكم من» «الضلال، إن كنتم مصدِّقين بما أنزل الله عليكم»[٥١]. حيث أن الإيمان الحقيقي لا يحمل صاحبه إلا على الالتزام بمنهج الله تعالى وشريعته.

وهنا يحكم الله تعالى على مثل هكذا جيل بالتيه -وإن كان فيه بعض الاستثناءات كالرجلين اللذين أنعم الله عليهما وحملا راية الدعوة والاصلاح والتغيير مع موسى وهارون عليهما السلام-

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 32 2/8/12 9:38:06 AM

ويستبدله بجيل جديد ملتزم بكتاب الله تعالى وشريعته عز وجل، قال تعالى ﴿ **وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾[٥٢].

تساؤل وتنبيه.. ألم يأخذ الله تعالى على كل مسلم رضي بالإسلام دينا، عهدا مؤكدا بالالتزام والتمسك بشرع الله تعالى؟! ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[٥٣]. ألم يأمرنا الله تعالى بأن نأخذ القرآن ونتمسك به؟.. ألم نعلم أنه أمانة في عنق كل مسلم، وسوف نسأل عنه أمام الله عز وجل ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾[٥٤]. فهل نحن مستعدون لهذا السؤال؟!.. أليس البعد عن منهج الله تعالى وعدم التفكير في الرجوع إليه -رغم كل هذه المآسي والابتلاءات- ينطبق عليه قوله جل وعلا ﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾؟! فما النتيجة بعد هذه المخالفة الصريحة؟! الحذر كل الحذر من الوقوع في هذه الفتنة الشديدة التي حلت بقوم موسى عليهم السلام.

وقد مكث بنو إسرائيل في التيه أربعين سنة، حتى فني جيل بأكمله. فني الجيل الخائر المهزوم من الداخل، وولد في ضياع الشتات والبعد عن الأوطان وقسوة التيه جيل جديد. جيل لم يترب وسط مناخ يتصف بالسلبية في مجال الاصلاح والدعوة إلى الله، ولم يشل روحه انعدام الحرية والدكتاتورية. جيل لم ينهزم من الداخل، جيل لم يعد يستطيع الأبناء فيه أن يفهموا لماذا يطوف الآباء هكذا بغير هدف في تيه لا يبدو له أول ولا تستبين له نهاية، إلا خشية من لقاء العدو. جيل صار مستعدا لدفع ثمن آدميته

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 33 2/8/12 9:38:06 AM

وكرامته من دمائه، جيل لا يقول لموسى ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾. جيل آخر، جيل ليست الدنيا هي كل حياته والدنيا هي التي تسيره، جيل لا يسعى وراء الشهوات والمحرمات ومصالحه الشخصية، جيل ليست قضيته في الحياة تكوين نفسه والاعتناء بأسرته فقط. بل جيل من الشباب قضيته الأولى هي نصرة الله تعالى ونصرة دينه الإسلام، جيل إيجابي تربى على القرآن الكريم، جيل مساجد وصلاة فجر، جيل يتخلق بخلق القرآن الكريم، جيل يصلح أن يفتح بلاده ليقود عملية الاصلاح ويقود الأمة الإسلامية من جديد. أخيرا ولد هذا الجيل وسط تيه الأربعين عاما.

ولقد قدر لموسى، زيادة في معاناته ورفعا لدرجته عند الله تعالى. قدر له ألا تكتحل عيناه برؤية هذا الجيل. فقد مات موسى عليه السلام قبل أن يدخل الجيل الجديد الأرض التي كتب الله عليهم دخولها، ومات سيدنا هارون أيضا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان قومه يؤذونه في الله: قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر.

وفي هذا دلالة أن على المسلم الجاد أن يبذل ما في وسعه لبناء نفسه وتربيتها أولا والأخذ بجميع الأسباب للاصلاح والمشاركة في صناعة نهضة الأمة الإسلامية وبناء وقيادة جيل النصر والتمكين. وليس عليه إدراك النتائج، ذلك لأن النجاح والنتائج بيد الله تعالى عز وجل.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 34 2/8/12 9:38:06 AM

المرحلة الرابعة: لحظة التمكين

وهنا ظهر يوشع بن نون ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ**﴾[٥٥]. كان يوشع فتى تربى على يد سيدنا موسى عليه السلام فأصبح اليوم صالحا لأن يقود الجيل الجديد لتحرير الديار. وخرج يوشع مع جيله من بني إسرائيل وحاصروا الأرض المقدسة عدة أشهر. قال النبي (صلى الله عليه وسلم) (ان آخر يوم في المعركة كان يوم جمعة) لأنه كان محرم على بني إسرائيل العمل يوم السبت أو القتال فيه. اليوم سينتهي مع غروب الشمس، وكان يوشع ينظر إلى الشمس وهي تبدأ بالغروب، لو انها غربت ستتوقف المعركة وسيحصنون أنفسهم ويضيع كل النصر الذي تحقق. يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) (فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا..) ويقول النبي (..فحبست حتى فتح الله عليه)، وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) (إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس)[٥٦]. وتحقق النصر وبمجرد دخولهم الأرض المقدسة غربت الشمس فسبحانه الذي بيده ملكوت كل شئ، وسبحان الذي يقول للشئ كن فيكون. ظلوا يعملون أربعين سنة من أجل أن يحرروا الأرض المقدسة ولا تأتي المعجزة إلا في آخر لحظة؟! وذلك النصر الذي لا يأتي إلا لجيل تربى على القرآن الكريم، جيل مؤمن مخلص لنصرة الله تعالى ونصرة دينه ونبيه، فتتحرر بلادنا ونقود عملية الإصلاح والنهضة من جديد بإذن الله.

إياكم أن تيأسوا والله سيعز دينه، ولا تستغربوا ورسولكم القائل

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 35 2/8/12 9:38:07 AM

حتى الحجر ينطق فيقول (يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله)[٥٧]، ألم يقل هذا رسول الله في حديث صحيح؟! ما الفرق بين معجزة حبس الشمس ومعجزة نطق الحجر تلك المعجزة التي بانتظارنا؟! فقط علينا أن نأخذ بالأسباب، وأن نكون صادقين مع أنفسنا ومع الله تعالى بالعمل على نصرة الله عز وجل ونصرة دينه الإسلام والمبادرة بعملية الاصلاح والاتخاذ بجميع أسباب وقوانين النهضة والتمكين.

كان هذا جانب من قصة سيدنا موسى عليه السلام، وكل ما علينا فعله -إن كنا جادين في البحث عن حلول لمشاكلنا- هو دراسة القرآن الكريم وسير الأنبياء عليهم السلام بعناية وتدبر، قال تعالى ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[٥٨].

عبرة مهمة..

من خلال هذه القصة نرى بشكل واضح أن الحل في تربية جيل من الشباب، جيل رجال جيل نافع مؤمن بالله واثق من نصر الله تعالى. ولن يكون هذا إلا عن طريق التعاون معا، آباء وأمهات وأصدقاء وزملاء وأخوة ومعلمين وتربويين وطلاباً وأدباء وكتاباً وشعراء وإعلاميين ورياضيين وعلماء وأطباء ومهندسين ومحامين وموظفين وتجاراً وعمالاً وفلاحين ومهنيين وغيرهم من جميع أطياف المجتمع، لننتج جيلاً معداً إعداداً مميزاً للخدمة والمساهمة والبناء،

□□□ □□□□□ □□□□□□□□□.indd 36 2/8/12 9:38:07 AM

وأقل تشبثاً بأخطائه وأقل أنانية؛ جيلاً أكثر انفتاحاً وأكثر ثقة وأكثر عطاء وحباً وتلاحماً، جيلاً له رؤية نحو صناعة النجاح.

وهذا لا يعني على الإطلاق الركون إلى السلبية وانتظار الجيل المجدد! وعلينا الحذر الشديد من الوقوع في فخ الاسقاطات فنرمي كل معاناتنا على الجيل الجديد الذي لم يأت بعد، لماذا؟ ذلك لأن أساس أي اصلاح أو تغيير حقيقي يجب أن يبدأ من الداخل، أي يجب على كل منا أن يتقي الله وأن يبدأ بنفسه أولا.

من صفات الجيل المنشود.. وللجيل المنشود مواصفات خاصة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

• استقلال النفس والقلب: يعني الارتباط القلبي بالله تعالى سبحانه وبالإسلام دينا وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) نبيا ورسولا ارتباطا وثيقا. ومن ثم فإن القلب يكون متعلقا بالحق والأفكار وليس بالأشخاص أو الأشياء المادية، فكثير من الناس يهتم بالأشخاص ولا يهتم بالأفكار، وعندما تطرح عليه فكرة تجده يسأل: من قائلها؟ فإذا قيل له الشخص الفلاني رفضها وإن كانت حقا، وإن قيل له فلان الذي ينتمي إلى التيار الفلاني قبلها ولو كانت باطلا، وبالتالي فإن جيل النهضة المنشود يجب تربيته على أهمية التعرف على الأفكار ومناقشتها مناقشة علمية موضوعية بعيدا عن الحماسة والعاطفة. ذلك لأننا نجد اليوم الكثير من الناس نجدهم أتباع

□□□ □□□□□ □□□□□□□□□.indd 37 2/8/12 9:38:07 AM

مقلدون لأشخاص أو اتجاهات أو تيارات تقليدا أساسه الحماسة والعاطفة لا العقل والفكر.

• استقلال الفكر والعقل: جيل يتقن مهارات الفكر الناقد الذي يملك معايير يقيس بها الصواب من الخطأ، ويمتلك منهجية للبحث توصله إلى الحق -وليس المقصود به الفكر الذي لا يرى إلا العيوب ولا يركز إلا على الأخطاء أو العقل الذي يتبع ويقلد دون تفكير أو تدبر- جيل يتقن مهارات التفكير الإبداعي لإيجاد الحلول لقاضيا الواقع، جيل يملك الفكر الذي لا يتجمد عند عمل مفكر ما مهما جل قدره وعظمت مكانته. جيل لا ينساق –انسياقا تاما- وراَء الآباء أو من سبقهم دون دليل أو برهان، جيل لا ينطبق عليه قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾[٥٩]. جيل يركز على الأفكار لا على الاشخاص، جيل يتبع ارشاد القرآن الكريم في كيفية قبول الفكرة، جيل لسان حاله يقول قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [٦٠] ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٦١].

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا التركيز على هذه الصفات؟! ذلك لأن إهمال التربية على الاستقلالية -القلبية والعقلية والفكرية- يؤدي إلى انتاج جيل مربى تربية الأطفال، جيل غير واثق من نفسه، يشك في قدراته، ودائما ينتظر فعل من هو أكبر منه. جيل من السهل أن تسيره العاطفة والحماسة تجاه الأشياء المادية

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 38 2/8/12 9:38:07 AM

والأشخاص. جيل من السهل عليه أن يقع ضحية التعصب لتيار معين أو جهة معينة أو شخصا معينا أو زعيما معينا تعصبا يحول دون رؤية أي خير في أي اتجاه آخر.

إننا نريد أن نخرج جيلا من القادة وليس جيلا من الأطفال، جيلا يبادر وليس جيلا ينتظر، جيلا يوحد الأمة وليس جيلا يتقوقع على نفسه أو منظمته، جيلا لا يعبد الوسائل أو يقدسها وإنما يتأكد من أن كل وسيلة يقوم بها تحقق انتاج ملموس من قبل الناس، فان لم يتحقق هذا الانتاج طوَّر الوسيلة أو غيرها، جيلاً يعترف بأخطائه بشجاعة وحكمة ولا يقدم المبررات والحجج والأعذار لفشله ويسقط تعثره على المؤامرات الخارجية والآخرين، جيلاً لا يعتقد أن نجاح وفشل المنظمات النهضوية كالبورصة بارتفاع وانخفاض دائمين ولا يمكن التنبأ به، وإنما جيل يفهم أن للتغيير أسباباً وللتمكين سنناً وللنهضة قوانين من درسها بعناية وأخذ بها -بعد الاستعانة بالله تعالى- نجح بإذن الله وكانت له المكانة المتقدمة، ومن أهملها فشل وتعثر وتأخر، جيلاً قلبه معلق بالله تعالى يحب فيه ويبغض فيه، وليس القلب الذي يعبد التيار الفلاني أو الزعيم الفلاني ويعرض عمن سواه. جيل يحب كل من يقدم إنجازا لنصرة دين الله ويدعو له، حتى وإن كان يخالفه أو يتبنى فكرة غير التي يراها.

إذن، يمكن القول إن الأولوية في مثل هذه الحالات يجب أن تكون لمشروع فكري تربوي مبني على العقيدة الصحيحة والأخلاق القرآنية والفقه الحركي الدعوي المتجدد، تتبناه مجموعة جديدة

□□□ □□□□□ □□□□□□□□□.indd 39 2/8/12 9:38:07 AM

مجددة من الشباب المستقل فكريا المخلص لدينه ووطنه وأمته.

وأود أن أذكر نفسي وأهلي وإخواني بأن تزكية النفوس والارتقاء الفكري والأخلاقي هو أساس أي نهضة، فالله تعالى لا يغير ما بنا من ذل ودمار وفساد وتأخر عن بقية الأمم، حتى نغير ما بأنفسنا لنرتقي بها إلى ما يحبه الله تعالى ويرضاه.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 40 2/8/12 9:38:07 AM

من أين يبدأ الاصلاح..

إن المشاركة الإيجابية في أمر الاصلاح والنهضة وبناء جيل النصر والتمكين، يحتاج من الإنسان الإيجابي أن يقدم وبجدية على التغيير وأن يبدأ بنفسه أولا. قال تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[٦٢]. وعلى الرغم من وضوح هذه الآيةً الكريمة وبساطتها، إلا أننا لا نرى من يطبق هذه القاعدة الربانية إلا ما رحم ربي، فتجد الغالبية من الناس ينتظرون أن يأتي التغيير والإصلاح من غيرهم (من جيل جديد، من حاكم قوي أو رجل مُخَلِّصْ، من دولة أجنبية عظمى، أو من حكومة جديدة قوية، الخ..). وبالتالي فهم غير مطالبين ببذل أي جهد لتغيير أنفسهم ومن ثم واقع الحال الذي نعيشه اليوم..! وعلى الرغم من أن معظم الأمثلة السابقة هي أمور مهمة -فلا حرج من تغيير وتطوير يأتي من حاكم صالح قوي أو حكومة مصلحة أو جيل جديد مجدد- إلا أن الفيصل ألا تكون هذه هي الأسس التي يعتمد عليها من أراد التغيير والاصلاح، لأن العاقبة ستكون عكس ما يبغي ويرتضي، لماذا؟ لأن الشخص في هذه الحالة لا يرى أنه السبب في مشاكله ووضعه الحالي، وبالتالي فأنه لا يرى داعي لتغيير نفسه وتزكيتها، ولا يرى داعي لأن يساهم في إيجاد الحلول لمشاكله. فهو يسقط كل معاناته على الظروف أو على الجيل الجديد الذي لم يأت بعد أو الحاكم المصلح المنتظر وغيره من الأمثلة. ومن الصعب على الإنسان في هذه المرحلة أن يتغير، ذلك لأن السنة الكونية تقول إن

□□□ □□□□□ □□□□□□□□□.indd 41 2/8/12 9:38:07 AM

التغيير الحقيقي وطريق أي اصلاح يجب أن يبدأ من الداخل.

ويذكر علماء النفس ست مراحل أساسية يمر بها الإنسان المقبل على أمر التغيير الإيجابي البناء.

مراحل التغيير الست..

أولا: مرحلة الإسقاطات.. في هذه المرحلة -وكما ذكرنا سابقا- فإن الشخص لا يرى أنه قد يكون هو احد أسباب مشاكله ووضعه الحالي، وغالبا ما تجده يسقط كل معاناته على الظروف الخارجية، حتى تصل المرحلة عند بعض الناس ليلوم الدهر أو الكون أو حتى -والعياذ بالله- يرفع اللوم إلى الله سبحانه وتعالى. في هذه المرحلة فإن الإنسان لا أمل له في تغيير وضعه! إلا في حالة واحدة، إذا استطاع -بعد الاستعانة بالله تعالى- الانتقال إلى المرحلة التالية.

ثانيا: مرحلة الاستيعاب.. هذه المرحلة هي مرحلة الاعتراف. إن علماء الاجتماع يقولون إن أولى مراحل حل أية مشكلة هي الاعتراف بوجود المشكلة! لماذا؟ لأنه من لا يعترف بوجود المشكلة لن يحلها أبداً. من هنا نعرف حرص الإسلام على قبول التوبة من الإنسان في حالة الخطأ. إن التائب من الذنب -المعترف بالخطأ والمستوفي لشروط التوبة- كمن لا ذنب له. لسان حاله يقول: هذا خطأ وأنا نادم عليه وأنوي الرجوع عنه وعدم العودة إليه. لكن المصر غير المعترف كأن لسان حاله يقول: ليس هناك خطأ أصلاً حتى أصححه.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 42 2/8/12 9:38:07 AM

وتعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل التغيير الإيجابي. لماذا؟ لأن أساس التغيير -كما ذكرنا سابقا- يجب أن يبدأ من الداخل، وعدم الاعتراف بالخطأ يجعل الأنظار كلها -في حالة حدوث التعثر أو الفشل- تتجه إلى الخارج، وترى المشكلة على أنها مؤامرة أو على أنها حدثت بسبب شخص ما، وغير ذلك من الأعذار والحجج. وبالتالي فإن الأسباب التي أدت إلى المشكلة هي أسباب خارجية. وهنا يدخل صاحب المشكلة في المرحلة الأولى -مرحلة الاسقاطات- وذلك عن طريق إسقاط أسباب التعثر والتأخر والفشل على الظروف والآخرين، مما يؤدي إلى عدم مواجهة الواقع وبالتالي مقاومة شديدة للتغيير. علما أن هذا قد يحدث بصورة لا شعورية وغير متعمدة في بعض الأحيان، خصوصا إذا كان العرف السائد في المجتمع يُعيب أمر الاعتراف بالخطأ ولا يعتبره صفة من صفات الرجولة والشجاعة، هذا إضافة إلى أن النفس بطبيعتها تكره الاعتراف بالخطأ ومواجهته.

مثال توضيحي.. مدرس -في مدرسة أو جامعة معينة- قام بتحضير المادة أو المنهج التدريسي بحرص كبير وبطريقة معينة. وقام بتدريس هذه المادة للطلاب بأسلوب معين. ثم جاء تقييم الطلاب السنوي لأداء المدرسين في نهاية العام الدراسي، وكان كالآتي: ٦٪ من الطلاب -الذين قاموا بعملية التصويت- كان تقييمهم لهذا المدرس مقبول و ٩٤٪ سيء. المدرس يقول -مدافعا عن نفسه ومعلقا على هذه النتائج- «إن هذه مؤامرة من الهيئة التدريسية ضدي ..

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 43 2/8/12 9:38:07 AM

المدير المسئول دكتاتور ولا يستمع إلينا ودائما ما يفرض رأيه وهو سبب هذه النتائج المزرية .. لقد قامت اللجنة المسؤولة عن التقييم وجمعه وفرزه بالتزوير .. إن الـ ٩٤٪ من الطلاب الذين صوتوا ضدي لا يتقون الله وناكرون للجميل»!! إن هذه الأسباب –وقد تكون فيها نسبة بسيطة من الصحة– هي بالتأكيد ليست الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هذه النتائج المزرية. إن هذا المدرس نسيّ تماما أو تناسى أن المشكلة الحقيقية قد تكون في طريقة أدائه وفي عدم قدرته على توصيل المعلومة للطلاب والتواصل معهم بشكل جيد، وأن كل ما عليه أن يفعله –بدل إلقاء اللوم على الطلاب والآخرين– هو أن يقوم بمواجهة المشكلة، فيقوم بالاعتراف بأخطائه بشجاعة وحكمة، ويقوم بتقييم ومراجعة أدائه وتغيير طريقة تفكيره وأسلوب تدريسه. فإن لم يفعل، كان من حق الطلاب المطالبة بتغيير هذا الأستاذ واستبداله بآخر. والأغرب من ذلك، أنك حين تسأل هذا المدرس –الذي تم استبداله بمدرس جديد– عن خطته لاستعادة ثقة الطلاب والعودة، تجد لسان حاله يقول: «في الحقيقة لا توجد خطة معينة إلا أنهم سوف يرون سوء المدرس الجديد فيعيدوني»؟!! وهو بذلك يدخل في مرحلة الاسقاطات والإنكار وعدم مواجهة الواقع، وفي هذه المرحلة فإن هذا المدرس لا أمل له من تغيير وضعه.

إن الاعتراف قوة، وشجاعة، وفضيلة. إن الاعتراف «بأني سبب ما حصل لي في الماضي»، قد ينظر له للوهلة الأولى على أنه شديد

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 44 2/8/12 9:38:07 AM

وفيه تأنيب، لكن لو نظرنا من منظار ثان لعلمنا أنه قوة، «فإن كنت أنا المسئول عن الماضي، فأنا المسئول عن الحاضر والمستقبل»!! إذن، يمكن لنا القول إن الاعتراف هو أولى مراحل التغيير الحقيقي، والمرحلة التي تسبقها هي عدم الاعتراف والإسقاط على الآخرين.

ثالثا: مرحلة الاستعداد.. وهي مرحلة تحديد الأهداف والبحث عن أفضل الطرق الموصلة إلى الهدف المنشود والتخطيط لذلك. وفي هذه المرحلة يقرر الإنسان أن يغير نفسه فيعترف بوجود المشكلة، ويقتنع بأن التغيير -بعد الاستعانة بالله تعالى- ممكن، ويقرر الاستفادة من أخطاء الماضي بعد الاعتراف بها وتقيمها. فيقوم بتحديد أهداف واضحة لمسيرته، ويبدأ في البحث عن كل ما من شأنه أن يوصله إلى هذه الأهداف.

وفي هذه المرحلة -على سبيل المثال- يبدأ الإنسان -الذي قرر أن يكون جزءاً من الحل- في البحث عن كل ما يفقهه في أمور دينه، فيطلع على السيرة النبوية الشريفة بالتفصيل، وعلى تفسير القرآن الكريم، وعلى العقيدة الصحيحة، وعلى قصص الأنبياء وسير التابعين والصالحين والمفكرين والمبدعين، وعلى التأريخ الإسلامي (كتاريخ الأندلس ودولة المرابطين والحروب الصليبية والتتار وغيرهم)، وعلى قوانين التغيير والنهضة وسنن التمكين وأسباب قيام الحضارات وسقوطها. أي يقوم بالبحث عن كل ما من شأنه أن يساعده على الارتقاء بنفسه وسلوكه وأخلاقه إلى ما

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 45 2/8/12 9:38:07 AM

يسعده ويُرضي عنه ربه، ويجعله على استعداد للمشاركة بإيجابية في أمر الاصلاح والدعوة إلى الخير وبناء جيل النصر والتمكين، إن لم يكن هو أحد قادة هذا الجيل.

رابعا: مرحلة التطبيق.. وهي المرحلة التي يقوم فيها الإنسان بتطبيق ما تعلمه وعرفه. وهي مرحلة تطابق القول مع العمل والسلوك مع القيم. لقد ركز الإسلام على أهمية العمل والتطبيق، فالإيمان وحده لا يكفي بدون عمل. وكفى بالآية القرآنية ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ () كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [٦٣]، دليلاً وشاهداً على أهمية التطبيق لما نعرفه ونقوله.

إن التطبيق والتنفيذ هو صلب الإنجاز. وفي هذه المرحلة يتم كشف الجادين في أمر التغيير من غيرهم. فتجد اليوم -على سبيل المثال- الكثير من الأفراد أو المنظمات يعانون تعثراً واضحاً في مسيرتهم قد يصل إلى حد الفشل في بعض الأحيان، ومع ذلك تجدهم يقاومون التغيير. وقد يسأل سائل: كيف يحصل ذلك وبعض هؤلاء -الأفراد أو المنظمات أو التيارات- يحملون شعارات التغيير والتجديد والنهضة؟! نعم، هذا صحيح من الناحية النظرية، فأمر التغيير والاصلاح إذا كان على مستوى الكلام والشعارات فالكل منفتح، ولا تجد من يقول لك: «التغيير أمر سيء فاجتنبوه!». ولكن عندما تأتي إلى مرحلة التطبيق فإنهم يقاومون بل ويرفضون التغيير في كثير من الأحيان. ومن لا يطبق بعد أن يعرف الحق فطريقهُ

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 46 2/8/12 9:38:07 AM

الاسقاطات على الآخرين واتخاذ الأعذار والتحجج بالظروف وغير ذلك.

فإذا كنت تود أن تقدم على أمر التغيير وأن تشارك في عملية الاصلاح وصناعة النهضة وأنت تتعامل بدكتاتورية مع زوجتك وأولادك في المنزل أو مرؤوسيك في العمل؛ أو إذا كنت تريد أن تربي أولادك تربية ايجابية وتكون من صناع جيل النصر والتمكين وأنت لا تستمع إليهم ولا تشاركهم الرأي ولا تعلمهم فنون التفكير واتخاذ القرار بحرية ولا تشجعهم على العمل في مجال الاصلاح؛ أو إذا كنت تود أن تطور نفسك في مجال معين -كجانب تطوير الذات والارتقاء بالنفس والسلوك- وأنت لا تقرأ أي كتاب ولا تحضر أي محاضرة ولا تسمع أي شريط ولا تشاهد أي برنامج في هذا المجال؛ أو إذا كنت من الذين يقرأون ويسمعون ولكن لا يطبقون؛ إذا كنت تود شيئاً من ذلك ثم أنت جالس على السرير تتمنى أن يحدث التغيير من حولك، فسوف يطول بك التمني:

وما نيل المطالـب بالتمنـي

ولكن تؤخـذ الدنيـا غلابـا

وما استعصى على قوم منال

إذا الإقـدام كان لها ركابـا

وهذا لا يعني أبدا العمل أو التطبيق بدون دراسة ووعي وتخطيط. وهنا لابد من التطرق لظاهرة خطيرة، ألا وهي أن البعض يتطلع إلى العمل والتطبيق بدون تخطيط وبغض النظر عما ينتج

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 47 2/8/12 9:38:07 AM

عن هذا العمل. هذه النظرة الخاطئة -في فصل النتائج عن العمل- خطيرة ويجب الانتباه لها. فالناس -على سبيل المثال- تُطالَب في أعمالها ووظائفها اليومية بالنتائج. وإذا لم تتحقق هذه النتائج فهم مهددون بالطرد والفصل أو الخصم أو غيرها من العقوبات. أما في أمر التغيير والاصلاح فتجد لسان حال البعض يقول: «إننا نكل الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وليس علينا إدراك النتائج»!! ويضع هذا الكلام في غير موضعه. نعم.. إدراك النتائج على وجه اليقين ليس بيد الإنسان، فهذا ظرف يخضع لأمر الله سبحانه وتعالى ومشيئته، لكن علينا أن نحاسب أنفسنا على النتائج وعلى أخطائنا. ولننظر بتدبر إلى المنهج القرآني الذي يعلمنا ذلك. فهو ينسب النصر لله سبحانه وتعالى، يقول تعالى ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ**﴾[٦٤]. أما عندما تحدث الهزيمة فيقول جل وعلا: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ**﴾[٦٥].

فيجب الاعتراف بالأخطاء عند التعثر والفشل ويجب أن تحدث عملية مراجعة للخطوات والإجراءات والقرارات. لماذا؟ حتى لا تكرر هذه الأخطاء وحتى تتم الفائدة للمخطئ ولمن حوله وللجيل الذي يليه.أما أن يتم تجاوز هذه المنهجية، والهروب إلى مرحلة الاسقاطات لمحاولة تسكين الناس ومنعهم من التساؤل حول النتائج، فإن ذلك يؤدي إلى تكرار للأخطاء باستمرار.

خامسا: مرحلة الصيانة والمحافظة.. وهي مرحلة العزيمة والإصرار على المضي في طريق التغيير والصبر على ذلك حتى تحقق النتائج.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 48 2/8/12 9:38:08 AM

إن كل حلم وهدف سوف تعترضه مصاعب، وكثيرا ما تدفع بعض المصاعب التي تواجه الإنسان إلى الكسل والفتور، أو التخلي نهائيا عن فكرة التغيير. ولا دواء لذلك إلا الصبر والأناة والأمل القوي بعون الله. قال تعالى ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [٦٦]. وأي صبر أعظم من الصبر على الطاعة، وأي طاعة أجمل وأحلى من تزكية النفس والمشاركة بجدية بأمر التغيير والاصلاح؟! فعلى الإنسان الجاد أن يذلل هذه المصاعب وأن يستمر بالمحاولة بدون يأس حتى تتحقق النتائج الملموسة، وهذا يحتاج إلى إصرار وعزيمة قوية وصبر جميل. قال تعالى ﴿ **فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا** ﴾ [٦٧]، أي الصبر الإيجابي الدافع للعمل المقرون بالتفاؤل الخالي من اليأس وكثرة الشكوى.

سادسا: مرحلة القضاء على المشكلة.. والتأكد من عدم العودة إلى المرحلة السابقة. وفي هذه المرحلة يتم التأكد من حدوث التغيير والوصول إلى الهدف المرجو بإذن الله، فيشعر الإنسان أنه قد تغير فعلا، وارتقى بنفسه وبسلوكه إلى غير ما كان عليه، وأصبح جزءا من مشروع اصلاحي شامل. وهنا -وفي هذه المرحلة- يجب التنبيه على ضرورة وجود خطة مدروسة لما بعد حصول التغيير والوصول إلى الهدف لضمان استمرارية النجاح، ففي بعض الأحيان تكون المحافظة على النتائج أصعب بكثير من الوصول إليها. فكم من شخص -أو منظمة أو تيار- مكن الله تعالى له في الأرض فلم يستطع الصمود أمام تحديات الحياة ومغرياتها فانتكس وفشل وسقط.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 49 2/8/12 9:38:08 AM

معوقات التغيير.. هناك عدة أسباب رئيسية تقف عائقا أمام التغيير الحقيقي الفعال النافع ويجب الانتباه إليها، من أهمها:

• قانون تغيير العقليات.. القانون يقول: لن نستطيع أن نواجه -أو نعدل- المشاكل المزمنة التي نعاني منها بنفس العقليات التي أوجدت تلك المشاكل. إن هذه المشاكل جاءت نتيجة عقليات وطريقة تفكير معينة. هذه العقليات هي التي أدت إلى هذه النتائج الفاشلة. فلما يتم الطلب من نفس الشخص –صاحب العقلية المعينة وطريقة التفكير التي أدت إلى الفشل- القيام بعملية التغيير! فالنتيجة المتوقعة تكون مقاومة شديدة للتغيير تؤدي إلى فشل آخر. إذن، لا يمكن أن يتم التغيير باستخدام العقلية نفسها أو باستخدام نفس طريقة التفكير التي أوجدت المشكلة.

الحل.. أما أن نغير الناس -أصحاب العقول وطرق التفكير التي أوجدت المشاكل- ونأتي بأناس آخرين ليقوموا بالتغيير، أو نفس الأشخاص ولكن بعقليات وطرق تفكير مختلفة. أي يقوموا بتغيير عقلياتهم من خلال تغيير طريقة التفكير.

• قانون السذاجة.. قانون آخر يبين لنا سبب مهم من أسباب عدم التغيير ومقاومته. والقانون هو: أن تعمل نفس الأمور بنفس الطريقة ثم تتوقع نتائج مختلفة.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 50 2/8/12 9:38:08 AM

ولنأخذ على سبيل المثال شخصاً ما قام بعمل معين وفشل، ثم دخل هذا الشخص في نفس العمل مرة أخرى فعمل بنفس الطريقة التي أدت إلى الفشل. يجب عليه –في هذه الحالة– أن لا يتوقع النجاح.

ولنأخذ شخصاً آخر لعب لعبة الشطرنج مثلا، فقام بتحريك القطع بطريقة معينة ففشل أمام خصمه ثم بدأ مباراة جديدة فقام بتحريك القطع بنفس الطريقة. ما المتوقع؟! بالتأكيد سوف يفشل.

الحل.. هل نريد أن ننجح في أمر التغيير في مثل هذه الحالات؟! إما أن نعمل شيء آخر مختلف. وإما أن نعمل نفس الشيء ولكن بطريقة مختلفة. لماذا؟ لأن السذاجة هي أن نعمل نفس الأمور –والحل هو أن نغيّر هذه الأمور– بنفس الطريقة –والحل هو أن نغيّر هذه الطريقة– ثم نتوقع نتائج مختلفة.

• نظرية المؤامرة.. تعتبر من أهم الأسباب التي تعيق التغيير. لماذا؟ لأن أساس التغيير يجب أن يبدأ من الداخل، والاعتقاد بنظرية المؤامرة يجعل الأنظار كلها –في حالة حدوث الخسارة– تتجه إلى الخارج، وترى المشكلة على أنها مؤامرة. وهنا يدخل صاحب المشكلة في المرحلة الأولى –مرحلة الإسقاطات– وذلك عن طريق إسقاط أسباب التعثر والتأخر على المؤامرات الخارجية، مما يؤدي إلى مقاومة شديدة التغيير.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 51 2/8/12 9:38:08 AM

• أسباب أخرى:

- الناس تقاوم التغيير لأنها مطمئنة ومرتاحة في الحال الواقعي وما تعودت عليه وألفته.

- الحرص على الراحة أو الخوف من زيادة العمل والأعباء والجهد الإضافي الذي قد يصاحب التغيير.

- توقع النتيجة السلبية، والخوف من أن النتائج سوف تكون أسوء مما هي عليه الآن. والمثل العربي الشهير خير دليل على هذا، يقول: السيئ الذي تعرفه خير من الجيد الذي لا تعرفه.

- صعوبة تغيير العادات والتشكل بعادات جديدة (نظرية من شب على شيء شاب عليه).

- اليأس وفقدان الأمل في إمكانية الاصلاح والتغيير.. وغيرها من الأسباب النفسية التي قد تؤدي بصاحبها إلى السلبية تجاه أمر التغيير والاصلاح وتركه بصورة دائمة ومتعمدة.

نحن نعرف أنه من جد وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل، وإنه واحد فقط الذي يحقق النجاح: العارف المصر، فيجب علينا أن نتقي الله تعالى وأن يبدأ كل منا بنفسه أولا. والتغيير الإيجابي ونهضة الأمة من جديد هو حلم كل واحد منا، وحتى نصل إلى هذا الهدف ونحققه يجب علينا أن نعرف الطريق -بعد دراسة الواقع وتشخيص المشكلة- وأن نضع خطة واضحة المعالم للمضي فيه وأن نصر على ذلك حتى نصل بإذن الله تعالى.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 52 2/8/12 9:38:08 AM

الخاتمة..

قال الصادق المصدوق (عليه أفضل الصلاة والسلام) (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر)[٦٨].

وقال (صلى الله عليه وسلم) (تكون النبوة فيكم ما شاء الله لها أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون فيكم ما شاء الله لها أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكا عاضا فيظل فيكم ما شاء الله له أن يكون ثم يرفعه إذا شاء أن يرفعه، ثم يكون ملكا جبريا فيكون فيكم ما شاء الله له أن يكون ثم يرفعه إذا شاء أن يرفعه، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) ثم سكت[٦٩]. وملكا عاضا: هو كناية عن شدة الاستمساك بأمر ما، وهو أمر أشبه بالملك الوراثي كما كان عليه الحال في القرون السابقة. وملكا جبريا: اي من الإجبار (القهر والإكراه) وهو الذي يقوم على التجبر والطغيان، وهو أمر أشبه بالأنظمة الدكتاتورية التي تحكم بالنار والحديد كما هو الحال في عصرنا هذا.

والحديث الشريف يحدثنا عن أربع مراحل تمر بها الأمة الإسلامية: مرحلة الخلافة الراشدة، ومرحلة الملك الوراثي العضوض، ومرحلة الحكم الجبري الفرعوني المتسلط، ثم مرحلة نهضة وعزة وحضارة وتمكين من جديد. ولقد علمنا -علم اليقين-

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 53 2/8/12 9:38:08 AM

حدوث المرحلتين الأولى والثانية، ونحن نعيش اليوم ونرى بأعيننا المرحلة الثالثة من خلال الأحداث الجارية، وما نزال ننتظر -انتظار الموقن بنصر الله تعالى- حدوث المرحلة الرابعة، مرحلة النهضة والتمكين ﴿ **وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [٧٠].

قال تعالى ﴿ **لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾[٧١]، فهنيئا لمن كتبه الله تعالى من الدعاة الايجابيين السابقين المساهمين بنهضة الأمة وصناعة وقيادة جيل النصر والتمكين. والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 54 2/8/12 9:38:08 AM

الهوامش

١. يوسف ١-٣.
٢. الأعراف ١٧٦.
٣. الأنعام ٩٠.
٤. النساء ٥٩.
٥. رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الألباني حديث صحيح.
٦. غافر ٢٩.
٧. غافر ٢٩
٨. النازعات ٢٤.
٩. الزخرف ٥١.
١٠. هود ٩٨.
١١. الزخرف ٥٤.
١٢. العنكبوت ٣٩.
١٣. البقرة ٤٩.
١٤. الشعراء ١٨.
١٥. الشعراء ٢٢.
١٦. القصص ٣-٦.
١٧. القصص ٧.
١٨. الأعراف ١٣٠.
١٩. طه٥٦.
٢٠. يونس ٨٨-٩٢.
٢١. الزخرف ٥٤.
٢٢. الأعراف ١٤٢.
٢٣. الأعراف ١٤٥.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 55 2/8/12 9:38:08 AM

٢٤. المائدة ٣.

٢٥. التين ٤.

٢٦. البقرة ٣٠.

٢٧. المائدة ٢١.

٢٨. المائدة ٢٠.

٢٩. المائدة ٢٢.

٣٠. المائدة ٢٣.

٣١. المائدة ٢٤.

٣٢. المائدة ٢٤.

٣٣. طه ٧١.

٣٤. الكهف ٢٩.

٣٥. يونس ٩٩.

٣٦. الرعد ١١.

٣٧. المائدة ٢٤.

٣٨. المائدة ٢٥.

٣٩. المائدة ٢٦.

٤٠. الأنفال ٥٣.

٤١. الرعد ١١.

٤٢. الأنعام ٦٥.

٤٣. محمد ٧.

٤٤. البقرة ٩٣.

٤٥. التفسير الميسر.

٤٦. الصف ٥.

٤٧. التفسير الميسر.

٤٨. الفرقان ٣٠.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 56 2/8/12 9:38:08 AM

٤٩. التفسير الميسر.

٥٠. البقرة ٩٣.

٥١. التفسير الميسر.

٥٢. محمد ٣٨.

٥٣. الزخرف ٤٣.

٥٤. الزخرف ٤٤.

٥٥. الكهف ٦٠.

٥٦. قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٣٤٨: هذا حديث صحيح جليل، مما حفظه لنا أبو هريرة رضي الله عنه و له عنه أربع طرق.

٥٧. رواه مسلم عن أبي هريرة.

٥٨. يوسف ١١١.

٥٩. البقرة ١٧٠.

٦٠. الأنعام ١٤٨.

٦١. البقرة ١١١.

٦٢. الرعد ١١.

٦٣. الصف ٢-٣.

٦٤. آل عمران ١٢٦.

٦٥. آل عمران ١٦٥.

٦٦. الزمر ١٠.

٦٧. المعارج ٥.

٦٨. رواه تميم الداري وصححه الألباني.

٦٩. قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ٨: رواه أحمد.

٧٠. يوسف ٢١.

٧١. الحديد ١٠.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 57 2/8/12 9:38:08 AM

المصادر والمراجع

الكتب

• أحسن القصص.. قصص القرآن الكريم، د. أحمد الكبيسي. وزراة الثقافة والاعلام، العراق-بغداد، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

• إستراتيجية الإدراك للحراك «من الصحوة إلى اليقظة»، د جاسم سلطان. مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

• القواعد الاستراتيجية في الصراع والتدافع الحضاري «قوانين النهضة»، د جاسم سلطان. مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

• خصائص الشخصية الحركية، أ. فتحي يكن. مركز الإعلام العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

• صناعة القائد، د. طارق محمد السويدان، أ. فيصل عمر باشراحيل. الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

• قصص الأنبياء، الدكتور عمرو خالد (الطبعة الرابعة). دار المعرفة، بيروت - لبنان ٢٠٠٧م.

• كيف ترتقي بنفسك.. أفكار إيجابية للارتقاء بالنفس البشرية إلى المطمئنة، د محمد بهجت الحديثي (جمع وترتيب). المكتب الجامعي الحديث ٢٠١٢م.

• كيف تخطط لحياتك، الدكتور صلاح صالح الراشد.

• هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، الدكتور ماجد عرسان الكيلاني. دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

المقالات

• مقال: «الفرعونية: صفاتها ونهايتها»، عبد العزيز كحيل.

• مقال: لا يزال «عجل» ما في قلوبهم، د.أحمد خيري العمري - العرب القطرية.

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 58 2/8/12 9:38:08 AM

• مقال: سيكولوجية الاستبداد، د. محمد المهدي.
• مقال: علموه ثلاثية الاستقلال، د جاسم سلطان.

الأشرطة السمعية

• ألبوم إستراتيجية التغيير الفعال، الدكتور صلاح صالح الراشد.
• ألبوم علمتني الحياة.. «التغيير»، للدكتور طارق السويدان.

المواقع الالكترونية

• موقع الشيخ الدكتور سفر الحوالي، «من أحوال الإيمان بالغيب»، من محاظرة الإيمان بالغيب.
• موقع الدرر السنية (http://www.dorar.net).

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 59 2/8/12 9:38:08 AM

الفهرس

مقدمة ٥

بداية القصة.. فرعون القائد ٨

- نظرة تأملية في علم النفس
(الظاهرة الفرعونية.. النموذج المثالي للدكتاتورية والاستبداد) ٩
- أركان الاستبداد ١٠
- أدوات الاستبداد ١١

مولد جيل النصر والتمكين ١٤

- المرحلة الأولى.. نهاية فرعون ١٥
- المرحلة الثانية.. مرحلة الابتلاء والامتحان والتمحيص ١٨
- المرحلة الثالثة.. الحكم بالتيه والاستبدال ٢٥
- نظرة تأملية في القانون الإلهي للتغيير ٢٥
- المرحلة الرابعة.. لحظة التمكين ٣٥
- عبرة مهمة ٣٦
- من صفات الجيل المنشود ٣٧

من أين يبدأ الإصلاح ٤١

- مراحل التغيير الست ٤٢
  - أولاً.. مرحلة الإسقاطات ٤٢
  - ثانياً.. مرحلة الاستيعاب ٤٢
  - ثالثاً.. مرحلة الاستعداد ٤٥
  - رابعاً.. مرحلة التطبيق ٤٦
  - خامساً.. مرحلة الصيانة والمحافظة ٤٨
  - سادساً.. مرحلة القضاء على المشكلة ٤٩
- معوقات التغيير ٥٠
  - قانون تغيير العقليات ٥٠
  - قانون السذاجة ٥٠
  - نظرية المؤامرة ٥١
  - أسباب أخرى ٥٢

الخاتمة ٥٣

الهوامش ٥٥

المصادر والمراجع ٥٨

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 60 2/8/12 9:38:09 AM

□□□ □□□□□ □□□□□□□□.indd 61 2/8/12 9:38:09 AM